إنجازية الأساليب الخبرية في الخطاب القرآني

"دراسة في البعد التداولي"

د. عابد لزرق
جامعة تيسمسيلت ـ كلية الآداب واللغات ـ قسم اللغة والأدب العربي ـ الجزائر
48lazreg@gmail.com

The Performativity of the constative styles in the Quraniciscourse: A study in the pragmatic dimension

Dr. Abed Lazreg
University of Tissemsilt, Department of ArabicLanguage and Literature,
Faculty of Letters and Languages, Algeria

الملخص:-

يهدف هذا البحث إلى الإفادة من مجموعة آليات إجرائية تخصّ اتّجاها محدّدا في البحث التداولي هو نظرية أفعال الكلام، قصد الوقوف عند فاعليتها ومرونتها في استثمار المنجز اللغوي والبلاغي العربي.

ويأتي القرآن الكريم مدوّنةً له لما يمثّله من رهان أمام الباحثين في حقول المناهج الألسنية الحديثة، وفي مدى قدرتهم على استثمار مفاهيمها للكشف عن مخزونات هذا الخطاب اللغوية والبلاغية، محاولا من خلاله الوقوف بالمقاربة والتحليل عند نماذج من أساليبه الخبرية، والبحث فيما تحمله من قوى إنجازية كلامية ثاوية فيها في ضوء ما تقدّمه نظرية أفعال الكلام من آليات تحليلية تداولية.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب الخبري، الخطاب القرآني، الإنجاز، التداولية، أفعال الكلام.

Abstract:-

This study aims to getadvantagefrom a group of proceduralme chanismsrelated to a specificstream in pragmaticresearch whichis the theory of speech act, in order to test itsefficiency and flexibility to exploit the arabiclinguistic and rhetoricachievement.

The holy Quran represent a challenge to study for reserchers in modern linguistics field, and also for their capacity to invest its notions for detecting its linguistic and rhetorical content, and try to standing through approach and analyze on some models from its constative styles, and explore its performative forces of speech in light of whatispresented by the theory of speech actsfrompragmaticanalyticalme chanisms.

Keywords: constative style,Quranic discourse, performance, pragmatic, speech act.

أ- مقدمة:

يرى التداوليون العرب أنّ ظاهرتي الخبر والإنشاء تعدّان المكافئ المعرفي لظاهرة الفعل الكلامي في الدراسات الغربية الحديثة، بما هو تجلٍّ لبعض مقولات نظرية أفعال الكلام في تراثنا العربي.

وتعدّ المقاربة التداولية للغة مقاربة هامّة لأنّها تدرس الظاهرة اللغوية أثناء الاستعمال، ويعدّ التحليل التداولي للخطاب تحليلا جادّا واسعَ الإجراءات، غير أنّه في الوقت نفسه مُربِك نوعا ما لسعة هذه الإجراءات والمصطلحات والمفاهيم، ولاشتراك التداولية بين حقول معرفية متعدّدة.

يحفل الخطاب القرآني بالقوى الإنجازية الحرفية واللازمة وبكثير من الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة من أوّله إلى آخره، وينفرد بخصوصيات تواصلية تميّزه عن باقي الخطابات البشرية، الأمر الذي يجعل التطبيق الحرفيّ لمفاهيم بعض اتّجاهات البحث التداولي عليه أمرا صعبا كمفاهيم اتّجاه الاستلزام الحواري.

لكن هذه الخصوصيات الخطابية والتواصلية قد لا تقف حاجزا أمام المقاربة التداولية التي تتّكئ على مفاهيم وآليات بعض الاتجاهات الأخرى مثل نظرية الأفعال الكلامية لما يحمله القرآن الكريم من قوى إنجازية وأفعال كلامية بين جوّانيّه، بحيث تصبح مقاربة أساليبه وطرائقه البلاغية وفق هذا المنظور ضرورة بحثية بفضل ما تفتحه الدراسة التداولية من آفاق ورؤى تحليلية تسهم في إثراء النصّ القرآني والكشف عن مخزوناته الأسلوبية والبلاغية في ضوء الدرس الألسني الحديث.

فهل تملك نظرية تداولية معاصرة مُستقاةٌ من البحث الفلسفي الغربي، هي نظرية أفعال الكلام، القدرةَ على مقاربة هذا المنجز البلاغيّ وأساليبه القرآنية وفق ما تملكه من آليات؟ وهل للخبر في الخطاب القرآني خصائص إنجازية كلامية كما تذهب إليه نظرية أفعال الكلام؟

هي بعض الإشكاليات المطروحة في ثنايا هذا البحث، والتي أسعى إلى تفكيك عناصرها من خلاله.

ب- مفهوم الفعل الكلامي:

ارتبط المعنى المعجمي للفعل في اللغة العربية بالعمل والحدث وزمن وقوعه كما جاء في لسان العرب قول المصنّف: ((الفعل كناية عن كل عَمَلٍ متعدٍّ أو غير متعدٍّ))[١]، وجاء في كتاب التعريفات للجرجاني أنّ))الفعل هو الهيئة العارضة للمؤثّر في غيره بسبب التأثير أولا، كالهيئة الحاصلة للقاطع بسبب كونه قاطعا، وفي اصطلاح النحاة ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة))[٢]. والذي يُفهم من الاقتباس الأخير أنّ الفعل ما كان له أثر بعد وقوعه، وهو عند النحاة كلمة تدل على معنى مرتبط بأحد الأزمنة الثلاثة. وقد حدّده سيبويه بأنّه ((...أمثلة أُخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون، ولما يقع، وما هو كائن لم ينقطع))[٣]، وهذا التعريف يدلّ دائما على الحدث والأثر.

بناء على ما سبق يكون مصطلح الفعل الكلامي قد وافق الدلالة المعجمية للفعل في اللغة العربية من حيث معنى الحدوث والتأثير، فهو ((إحداث أمر ذي معنى قصدا))[٤] يتجسّد في الكلام المتداول بين ألسنة الناس، والذي يحمل مقاصد المتكلمين إلى المتلقين بغية التأثير فيهم أو إقناعهم. فالفعل الكلامي كما تذكر "فرانسوازأرمينكو" هو الحدث الواقع بالكلام والمنجز به في سياق محدّد لأنّ الكلام تحقيق لفظي للمعنى، فالكلام هو أن نفعل وبمعنى واضح هو تدشين معنى وممارسة فعلية له بالإنجاز[٥]، حيث تتحوّل اللغة بأصواتها المنطوقة وحروفها المكتوبة إلى أفعال في العالم الواقعي بتعبير جون سيرل حين يصف عمل اللغة بأنّ الكلام فيها هو نوع من الفعل الإنساني، وأنّنا نحصل بفضل علم الأصوات الفيزيائي على علم الدلالة، حيث يقول: ((إن النفخة الصوتية التي تخرج من فمي تكون عبارة، أو سؤالا، أو شرحا، أو أمرا، أو نصيحة، أو طلبا، أو وعدا، وهلمّ جرّا، أو مجموعة كبيرة من الإمكانات الأخرى، (...) والشيء الخليق بالملاحظة الآن هو أنّنا نحصل من النفخة الصوتية على هذه الخصائص الدلالية المدهشة، التي لا تتضمّن فحسب الظواهر اللغوية والبلاغية، وإنّما تتضمّن أيضا الظواهر السياسية والأدبية والأنواع الأخرى من الظواهر الثقافية. فكيف تعمل اللغة؟ وكيف نحصل من الفيزياء على العلم الدلالة؟ تلك هي المسألة التي أناقشها))[٦].

الفعل الكلامي ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Speech act) وللفرنسي (Acte de parole)، ويصطلح عليه أيضا تسمية الفعل اللغوي الذي هو ترجمة لمصطلح (Acte de langage) من اللغة الفرنسية. كما فضّل "بول ريكور" تسميته بفعل الخطاب (Acte de discours) ليُظهِر خصوصية لفظ الكلام Speech مقارنة مع لفظ اللغة langage[٧]، وكلها مصطلحات يراد بها المفهوم اللغوي الذي وضعه أوستين مرتكَزا أساسا لنظرية لغوية تداولية جديدة منبثقة عن فلسفة التحليل اللغوي كما رأينا آنفا.

غير أنّ جون لاينز يرى وجود تضليل في مصطلح فعل الكلام لكونه يرمي بثقله الدلالي على الجانب الصوتي المادّي للغة ويحيل إليه؛ أي إلى الكلام المنطوق، بينما يُعدّ مصطلح الفعل اللغوي، حسبه، أنسب وأفضل بكثير لأنّه يشمل القوى الإنجازية المترتّبة عن لغة الكتابة ولغة الكلام مع بعض؛ أي اللغة في عمومها، ولكن مادام مصطلح فعل الكلام قد استُخدِم على نطاق واسع بعد أبحاث أوستين فقد رضي به لاينز وغيرُه ورأوا أنّه لا ضرورة من استبداله.[٨]

على أنّنا نجد سيرل نفسه يستدرك هذا الأمر بعدما وُسمت مقاربته الفلسفية بأنّها مقاربة للكلام بدلا من اللغة ليؤكّد على كونها مقاربة شاملة قائلا: ((قد يذهب في الاعتقاد أيضا أن مقاربتي هي مجرّد دراسة "للكلام" بدلا من "اللسان" بالمعنى الذي أقرّه فرديناند دي سوسير للمصطلحين. لكنّي أؤكّد في المقابل أنّ دراسة ملائمة للأعمال اللغوية هي دراسة للسان. وهذا صادق لسبب مهمّ يتجاوز ادّعائي بأن التواصل يستدعي بالضرورة الأعمال اللغوية. فعندي "كل ما يمكن أن يُعنى يمكن أن يُقال")).[٩]

يعرّف دومينيك مانغونو الفعل الكلامي بأنّه ((الوحدة الصغرى التي بفضلها تحقّق اللغة فعلا بعينه (أمر، طلب، تصريح، وعد...) غايته تغيير حال المتخاطبين، إنّ المتلفظ المشارك coénonciateur لا يمكنه تأويل هذا الفعل إلا إذا اعترف بالطابع القصدي لفعل المتلفظ))[١٠]، ومن ثمَّ فإن نجاح الفعل الكلامي مرتبط، حسبه، باكتمال وظيفتين هما: الإنجازية والقصدية. وعلى هذا الأساس فإن فعل الكلام ليس إصدار أصوات أو تلفظ بها فقط، بل هو كلُّ ملفوظ ينهض على نظام دلالي إنجازي تأثيري، فضلا عن ذلك فإنّه ((يُعدّ نشاطا ماديّا نحويا يتوسل أفعالا قولية Acteslocutoires لتحقيق أغراض

إنجازيةActesillocutoires (كالطلب، والأمر، والوعد، والوعيد...إلخ)، وغايات تأثيرية ActesPerlocutoire تخصُّ ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول). ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطَب، اجتماعيا أو مؤسساتيا، ومن ثمّ إنجاز شيء ما)).[١١]

فقيمة الجملة ليست محصورة في بنائها الدلالي فقط، وإنما في ارتباطها بواقعها والسياق المحيط بعملية إنتاجها، حيث ننتقل لإدراك حقيقتها من طابعها الدلالي إلى طابعها التداولي المتعلّق بقيم الاستعمال والفعالية الإنجازية والتأثير، كون أنّ مجال اهتمام التداولية ليس مرتبطا بنحوية الجملة بوصفها معطى لسانيّا، بل بوصفها وحدة لغوية يكون مجال التحليل التداولي فيها محصورا في لحظة قذفها إلى الواقع، وقصديةُ المتكلّم هي التي تدفع بدلالتها إلى إنجاز فعل هو فعل الكلام.[١٢]

في ضوء هذا المنظور؛ يُحقّق فعل الكلام هدفَ التداولية المتمثل في الإنجاز الكلامي سعيا إلى التأثير به باستغلال ظروف الحدث الخطابي، ولذلك فإنّه وسيلة للتعبير عن المقاصد والغايات والوصول إلى الأشكال اللغوية المنجزة خلال عمليات التخاطب، على أساس ((أنّ الوحدة الدنيا للتواصل الإنساني، ليست هي الجملة ولا أيّ تعبير آخر، بل هي استكمال (إنجاز) بعض أنماط الأفعال))[١٣]، وهو ركيزة ونواة أساسية لأعمال تداولية كثيرة، وهذا الاعتقاد هو الذي بنى عليه أوستين نظريته في التداوليات.

ج- الخبر في الدرس اللغوي العربي:

أدّى اختلاف معاني الكلام وتعدّدها بالدارسين العرب إلى تقسيم الخبر وفق أسس متباينة بتباين مقاصد المتكلمين وطرق إفادتهم للسامعين والمؤوّلين للخطاب التبليغي في سياقات ومقامات مختلفة. وقد حصر البلاغيون الخبر في الكلام الصادق والكاذب، كما ذهب بعض اللّغويين والأصوليين مذهبا آخرا في تصنيف الخبر بإضافتهم صنفا ثالثا له، وهو الذي لا يكون صادقا ولا كاذبا، ومنهم الجاحظ الذي رأى أنّ الخبر ثلاثة أقسام: صادق وكاذب، وغير صادق ولا كاذب، ((...لأن الحكم إمّا مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه، وإما غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه، فالأول- أي المطابق مع الاعتقاد- هو الصادق، والثالث أي غير المطابق مع الاعتقاد- هو الكاذب-، والثاني، والرابع- أي

المطابق مع عدم الاعتقاد، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد، كل منهما ليس بصادق ولا كاذب))[١٤]. ويتّضح من خلال هذا النص أن الجاحظ وقف في تقسيمه على أساسين هما: مطابقة الواقع للكلام، واعتقاد المتكلم وقصده.

أمّا الغزالي فقد جعل الأخبار ثلاثة أقسام: القسم الأوّل ما يجب تصديقه، كالأخبار المتواترة، وما أخبر الله عنه، وما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام به، وما أجمعت عليه الأمة. والقسم الثاني ما يعلم كذبه، كمن أخبر عن الجمع بين الضدّين أو إحياء الموتى في الحال. أمّا القسم الثالث مالا يعلم صدقه وكذبه، فيجب التوقف فيه[١٥].

يبدو من التصنيفات التي قدمها العلماء العرب القدامى أنّها تتقارب مع ما سعى جون أوستين جاهدا لإثباته والعديد من فلاسفة اللغة الغربيين، وهو أنّ من الكلام ما لا واقعَ له يطابقه أو لا يطابقه، ولا يوصف بصدق ولا كذب، ومن ثمّ الوصول إلى الفكرة المحورية التي كانت المنطلق إلى وضع هذه النظرية، وهي أن من الكلام ما يكون فعلا أو إيقاعا لفعل بلفظ يقارنه في الوجود[١٦].

د- فائدة إلقاء الخبر والأفعال الكلامية المترتّبة عنه:

لّما كان قصد المتكلم من الخبر التعبير عن أغراضه حدّد البلاغيون غرضين أساسيين من إلقاء الخبر هما: إفادة المخاطَب بالحكم، ويسمى هذا فائدة الخبر. أو إفادته أن المتكلم عالم بالحكم، ويسمى لازم فائدة الخبر.

كثيرا ما يتمّ إيراد الخبر لخلاف هذين المقصدين، ولتحقيق بعض الأغراض البلاغية التي تستفاد من سياق الكلام، ومن ذلك إظهار الحسرة والحزن، أو إظهار الضعف والخشوع والخضوع، كقوله تعالى حكاية عن نبيّه زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (سورة مريم، الآية: ٠٤)، أو حثّ الهمم وتحريك النفوس، كقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ (سورة النساء، الآية: ٩٥)،كما يراد بالخبر أغراض أخرى كالنصح والإرشاد، أو المدح، أو الهجاء، أو الفخر، أو الرثاء، أو إظهار الضعف والحزن، أو التوبيخ والإنكار[١٧].

اهتمّ البلاغيون بكيفية إلقاء المخاطِب الخبر مراعاةً لاختلاف أحوال المُخاطَب حال

التلقّي، إذ إنّ وضعيته وأحواله تسهم مساهمة فعّالة في فهم المقصد فهما جيّدا، وأداء الخطاب أداء فعّالا تبليغيّا، وتحديد نوعية الكلام المُرسَل من المتكلم[١٨]. فإن كان غرض المُخبر إفادة المُخاطَب أحد الغرضين؛ فائدة الخبر أو لازم الفائدة، فينبغي أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة، فإذا ألقى الجملة الخبرية إلى من هو خالي الذهن استغنى عن مؤكّدات الحكم، وسُمّي الخبر هنا "ابتدائيّا". أما إذا ألقاها إلى طالب لها، مُتردّدٍ في حكمها، استحسن تقويتها بمؤكّد من المؤكّدات حتّى يزيل عن المخاطَب تردّده، كنحو "لزيد عارف" بلام التوكيد، أو "إنّ زيدا عارف" بالحرف إنّ، وسُمّي هذا الخبر: "طلبيّا". وإذا ألقاها إلى منكر لما ما في الجملة، وجب تأكيدها بمؤكّدين فأكثر بحسب درجة الإنكار، كنحو: "إنّي لصادق" لمن ينكر ولا يبالغ في إنكاره، و"إنّي والله لصادق" لمن يبالغ في إنكاره، ويسمى هذا النوع من الخبر: "إنكاريّا"[١٩].

من أمثلة الخبر الإنكاري الآيات من سورة يس، والمعروفة كمثال بارز في هذا الباب، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (سورة ياسين، الآية: ١٤، ١٥، ١٦). فلمّا كان الإنكار والإصرار على التكذيب واضحا قال القرآن في الثانية: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾.

وقد وصف مسعود صحراوي هذا التقسيم بالتداولي القوي والصريح لقيامه على ملاحظة مقتضى الحال ومراعاة الموقف النفسي من حال السامع تجاه ما يخبَر به، واضطرار المتكلم إلى تعديل الكلام والتصرف فيه حتى يلائم المقام وحال السامع أثناء إلقائنا للخبر إليه، وحتّى يؤدّيَ الكلامُ وظيفتَه التواصلية الإبلاغية[٢٠].

أمّا بمعايير جون سيرل فيكمن الفرق بين أضرب الخبر الثلاثة فيما سمّاه **"درجة الشدّة للغرض المتضمن في القول"**، وذلك لتشابه بعض الجمل الخبرية في الغرض المتضمن في القول واختلافها في درجة الشدّة والتأثير (الإنجاز)، والتي يقابلها عند البلاغيين العرب التقسيمات السابقة: الابتدائي، والطلبي والإنكاري. وضرب لذلك الفرق مثالا من خلال جملتين مختلفتين في الشدّة هما: (أُقسم أن بيل سرق المال)، و(أظنّ أن بيل سرق المال)[٢١].

قد يلقي المتكلم خبره بصورة تخالف ما يقتضيه الظاهر ليوافق ما يقتضيه المقام، فيُنزل خاليَ الذهن منزلة المتردّد أو المنكر، أو ينزل غير السائل منزلة السائل، كقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (سورة هود، الآية: ٣٧). فالمخاطَب هنا، وهو سيدنا نوح عليه السلام، ليس متردداً في مضمون إفادة الجملة (إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)، فنُزِّل لهذا منزلة المتردِّد السائل وأُلقي إليه الخبر مؤكَّدا ليجيب عمّا أثير في نفسه. كما قد يُنزَّل غير المُنكِر منزلة المنكِر إذا ظهرت عليه علامة من علامات الإنكار، أو العكس، بإنزال المنكر منزلة غير المنكر(٢٢).

هـ- الأسلوب الخبري في القرآن من منظور تداولي:

رأى البلاغيون القدامى والتداوليون الجدد في الخبر أنه خطاب تواصليّ مكتمل إفاديا، والذي يريد المتكلّم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية(٢٣)، إنْ صدقا أو كذبا، فالغرض منه إفادة المستمع بحُكْمٍ لا يعرفه.

للخبر غرضان رئيسان حدّدهما البلاغيون من إلقائه كما ورد آنفا، وهما:

- فائدة الخبر: وهي إفادة المخاطب بالحكم الجاهل به.
- لازم فائدة الخبر: وهي إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم، لكن لديه غرض آخر من إخباره يفهم من السياق...إلخ.(٢٤)

ففي الحالتين معا يقوم ملقّي الخبر بعملية **افتراض مسبق** بينه وبين المتلقّي، وهي عملية لديها أهمية كبيرة في التواصل وإنجاز الأفعال الكلامية، حيث يقوم المرسِل بافتراض أو افتراضات على أساسها يلقي خبره، فإن كان لدى المتلقّي أساس سابق قبل تلقّيه الكلام يصبح للخبر فائدة، وإن كان جاهلا وليس لديه أيّ علم مسبق يصبح للخبر المنقول لازم فائدة(٢٥).

لكن الخبر كثيرا ما يخرج عن هذين الغرضين إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد من قرينة السياق وحده، ومن قصدِ المتكلّم الذي يعمل المتلقّي على محاولة تأويله، هذه الأغراض تعدّ أفعالا كلامية حقيقية متضمّنة في القول. كما أنّ بعض الجمل الخبرية قد تتشابه في محتوياتها القضوية، لكنّها تختلف في درجة الشدّة والتأثير في المتلقّي، بما يُعرف في

الاتّجاه التداولي، وما سمّاه جون سيرل بـ **درجة الشدّة للغرض المتضمن في القول**، ونستحضر هنا أصناف الخبر الثلاثة (الابتدائي، الطلبي، الإنكاري) التي يراعي فيها المخاطِبُ حالَ المخاطَب أثناء التواصل اللغوي بينهما حتّى يُؤدَّى الخطاب أداءً تبليغيّا فعّالا، وهو تصنيف بلاغيّ عربيّ تداوليّ وعميق كما سبق وأن أشرنا.

و- بعض الأفعال الكلامية للخبر في القرآن الكريم:

إذا وقفنا على ظاهرة الخبر في القرآن الكريم، وما يترتّب عنها من أفعال كلامية، وجدناها تخرج إلى عدّة أغراض تُدرَك من سياق الآيات والسور دون قرائن بنوية تركيبية يُستند إليها في إدراك هذه الأغراض. ومن هذه الأغراض بعض الأمثلة التي سأوردها تباعا كوجه استدلال فقط، كون أنّ الخطاب القرآني يحفل بأفعال كلامية كثيرة جدّا مترتبة عن عباراته الخبرية والإنشائية على سواء، بشكل يستحيل معه الحصر.

١- الاسترحام والاستعطاف: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٢٦).

وردت هذه الآية الكريمة من سورة القصص في سياق عامّ هو سرد قصّة موسى عليه السلام، وفي سياق جزئي بعد دخوله المدينة ومصادفته لرجلين يتقاتلان وقتله لأحدهما عن طريق الخطأ. حيث نجد في مطلع الآية عبارة خبرية (ربِّ إنّي ظلمت نفسي) تعدّ لازم فائدة لكون الرسول موسى يدرك إدراكا قطعيا معرفة الله بحاله، ولكنّه يتوجّه بكلامه هذا طلبا للمغفرة والاستعطاف والرحمة، ويعضد ذلك فعل كلامي آخر في الآية هو أسلوب الأمر (فاغفر) المتضمّن لفعل كلامي غير مباشر هو الدعاء، لتأتي الإجابة بعد ذلك سريعة، وفي نفس الآية بقوله تعالى (فغفر له)، وبنفس الصيغة أيضا (الخبر).

فإذا حلّلنا العبارة الخبرية تداوليّا وجدنا:

- المحتوى القضوي:

- مركّب إسنادي: فعل (ظلم) + فاعل (ضمير متّصل).

- علاقة إحالية: إحالة الخبر إلى المتلقّي، ومؤشّرها النداء (ربّي).

- القوة الإنجازية الحرفية: فعل كلامي مباشر هو الخبر.
- القوة الإنجازية المستلزمة: فعل كلامي غير مباشر هو الاسترحام.

مثل ذلك أيضا حكاية يونس عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٢٧)، وفيها استعطاف منه لربّه وطلب رحمة وهو في بطن الحوت بعد شعوره بالذنب، لتأتي الإجابة أيضا سريعة في الآية الموالية ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٨).

ويمكن اختصار الفعلين الكلاميين المترتبَين عن المثالين في المخطط الآتي:

الأفعال الإنجازية:		النتيجة / الأثر:
1- رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي	←	1- غَفَر له
2- سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ	←	2- النجاة من بطن الحوت

٢- التوبيخ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(٢٩).

لّما رأى قوم مريم، عليها السلام، الأمَّ تحمل ابنها عيسى، عليه السلام، بعد وضعه، حاولوا تبكيتها وتوبيخها على ما اعتقدوه جُرما أخلاقيّا ارتكبته. وهو خبر خالٍ من المؤكّدات يُصنَّف ضمن لازم الفائدة، كون الطرفين؛ المخاطب والمتلقّي، على علم بحقيقة الخبر (أبوها رجل صالح وأمّها عفيفة)، لكنه خرجوا به إلى **غرض كلاميّ** هو التوبيخ، وترتّب عنه فعل إنجازي تأثيري آخر نلمسه من خلال ردّة فعل مريم في الآية الموالية في قوله تعالى: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)(٣٠)، فكانت الإشارة منها **فعلا تأثيريّا بالقول**، وهو فعل إنجازيّ شفوي ميتا-لساني، أو ماوراء-لساني (Para-Linguistique).

فيكون الفعل الكلامي في الآيتين كالآتي:

- فعل القول: الخبر (مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا).
- الفعل المتضمّن في القول: التوبيخ.
- الفعل الناتج عن القول: السكوت والإجابة بالإشارة.

٣- التذكير والتنبيه:

عادة ما يُدرج الخبر الذي يراد منه التذكير وتنبيه الغافل ضمن لازم الفائدة لكون المخاطَب على علم به. ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٣١]. يقول المفسّرون في (كل من عليها فان) تذكير بالموت والفناء[٣٢]، ومثله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٣٣].

في الآيتين من سورة الرحمن فعلان إنجازيّان متضمّنان في الخبر هما التذكير والتعظيم في (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)، وفيهما لطيفة أخرى تداولية في المركّب الإسنادي والإحالي هي:

- (كلّ من عليها فانٍ):

في التركيب الإسنادي استُخدِم الاسم الموصول "من" بدل "ما" تغليبا للعاقل[٣٤]، وفي هذا مراعاة من الخطاب القرآني للمخاطَب الذي جاء بصيغة الغيب والعموم.

- (ويبقى وجه ربّك):

العلاقة الإحالية هنا يدلّ عليها إضافة لفظ الجلالة إلى ضمير المخاطب ليحيل إلى الرسول، عليه الصلاة والسلام، تشريفا له وتعظيما لشأنه على رأي كثير من المفسّرين، وهو خطاب خاصّ. ورأي آخر يرى بأنّ الضمير يشمل كلّ سامع للخطاب[٣٥]، دائمٍ في الزمان والمكان. وفي الحالتين أيضا وجه تداوليّ يكمن في مراعاة المخاطَب.

ففي الآيتين الكريمتين إذن جَمْعٌ بين غرضين مختلفين هما التذكير والتعظيم خرج بهما الخبر بفعلين متضمّنين في القول.

٤- التهكّم والإهانة والتحقير: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[٣٦].

خرج الخبر في الآية الكريمة من حرفيته المباشرة إلى معنى آخر إنجازيّ هو التهكّم من الآثم وهو يُعذَّب يوم القيامة بعد أن كان يدّعي القوة والمكانة في الدنيا، والمقصود هنا (أنت الذليل المُهان)[٣٧]، وهو قوة إنجازية مستلزمة عكس ما يدلّ عليه المحتوى القضوي للكلام وفعل القول، فالقرينة سياقية لا غير.

٥- **الوعيد:** في مثل آيات ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٣٨]، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣٩]، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[٤٠]...إلخ، وهو كثير في القرآن.

الصيغة الكلامية الحرفية هنا خبرية، غير أنّ القوة الإنجازية المستلزمة تدلّ على الوعيد والتهديد، وهي أفعال كلامية تندرج، بلغة التداول، ضمن صنف (الوعديات) أو (الإلزاميات).

كما يخرج الخبر أحيانا إلى الإنشاء ليجسّد أفعالا إنجازيّة قويّة متفاوتة عن الخبر العادي في درجة الشدّة للغرض المتضمن في القول فيها، ومن ذلك:

٦- الأمر:

نحو قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[٤١]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٤٢]، وقوله في نفس السورة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾[٤٣]، وقوله أيضا: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٤٤]...إلخ.

من هذه الأفعال الكلامية صيغ عديدة وردت في القرآن على هذا النحو لتفيد الأمر إضافة إلى الإخبار، فالأمر في هذه المواضع فعل إنجازيّ غير مباشر وقوة مستلزمة في الآيات، وهو يصنّف تداوليّا ضمن فئة (التوجيهات) من تصنيف سيرل الخماسي.

٧- **النهي:** كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٤٥].

يقول الزمخشري في "الكشّاف" في تفسير عبارة (لا تعبدون إلا الله) بأنّه إخبار في معنى نهي، فاستخدام الخبر في مثل هذه المواضع ((...أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنّه كأنّه سُورع إلى الامتثال والانتهاء))[٤٦]، ودلالة النهي هنا يقوّيها الأمر بعدها في عبارة (وبالوالدين إحسانا)؛ أي أحسنوا إلى الوالدين، فيكون (لا تعبدون) بمثابة (لا تعبدوا).

فعل القول:	←	فعل الإنجاز:
الخبر		النهي
(لا تعبدون)		(لا تعبدوا)

مثله أيضا قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾(٤٧)، وهو خبر خرج بحرفيّته أيضا إلى النهي عن مسّ المصحف لمن لم يكن على طهارة.

وقد أفرد الزركشي لهذه الظاهرة البلاغية بابا ضمن مصنّفه (البرهان في علوم القرآن) سمّاه: "وضع الخبر موضع الطلب في الأمر والنهي"، وعرض من خلاله بعض الآيات القرآنية التي تندرج ضمن هذا السياق(٤٨).

ولعلّ في استخدام الطلب بصيغة الخبر مقصدا يريد من خلاله المتكلّم دفع المخاطَب إلى سرعة الامتثال دون أمر ونهي صريحين، كما رأينا في كلام الزركشي آنفا، يقول التفتازاني: ((من الاعتبارات المناسبة لإيقاع الخبر موقع الإنشاء القصد إلى المبالغة في الطلب، حتى كان المخاطب سارع في الامتثال، ومنها القصد إلى استعجال المخاطب في تحصيل المطلوب...))(٤٩). ونلاحظ من خلال كلامه هذه الاعتبارات التداولية الشديدة التي وضعها العلماء العرب في حسبانهم في تحليلهم للكلام وأضربه وأساليبه.

٨- الدعاء: في مثل قوله تعالى على لسان أمّ مريم: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾(٥٠).

خرج الخبر في قول أمّ مريم عليها السلام: (إنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) بعد أن وضعتها وتبيّن لها أنّها أنثى إلى الدعاء بالحفظ للمولودة ولذريّتها.

كما توجد في الآية لطائف بلاغية أخرى منها استخدام التأكيد مرّتين رغم علم المتكلّم والمخاطب (الأمّ والله تعالى) بمضمون الخبر. فقد استخدمته أمّ مريم في قولها (إنّي سمّيتها مريم) تأكيدا وإظهارا لرضاها عن المولود على رأي "الطاهر بن عاشور"(٥١)، واستدراكا لما أظهرته من تحسّر في الآية التي سبقتها عندما قالت (ربِّ إنّي وضعتها أنثى) و(ليس الذكر كالأنثى). كما استخدمت التأكيد في دعائها (إنّي أعيذها بك وذرّيّتها)، فجاءت إجابة الدعاء سريعة في الآية الموالية ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾(٥٢).

ز- خاتمة:

هذه إذن بعض القوى الإنجازية الكلامية المتضمّنة في مثل هذه الأساليب الخبرية المنتقاة من القرآن الكريم، ولا شكّ أنّه توجد أفعال كلامية أخرى في مواضع كثيرة منه، لكن هذه

النماذج المذكورة إنّما سيقت لغرض التمثيل والاستدلال. وهذا قليل من كثير من الأغراض التي يخرج بها الخبر، وفي مواضع عديدة من القرآن، تُدرَك إنجازياتها ودلالاتها الضمنية من سياق الآيات والسور دون وجود قرائن بنوية فيها كما سبق وأن أُشير.

وقد حاولت من خلال البحث تجلية بعضٍ من هذه الإنجازية التي يحفل بها الخطاب القرآني وإن على سبيل النمذجة والتمثيل، وهي إنجازية تحقّقها مجموعة أفعال كلامية تكتسي أبعادا تداولية حجاجية تستخدمها البلاغة القرآنية بغرض الإقناع والتذكير والحمل على الهداية والإرشاد، بل يمكن القول إنّ القرآن من أوّله إلى آخره حافل بالأفعال الكلامية، ولعلّ أوّل آية وأوّل لفظ نزل به الوحي الكريم كان فعلا كلاميّا كامل الإنجاز في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾(٥٣)، والذي جاء بصيغة الأسلوب الإنشائي الطلبي الأمري (اقرأ) المقرون بالأسلوب الخبري (ربّك الذي خلق)، ممّا يستلزم إجابة واستجابة وامتثالا فوريا من النبي عليه الصلاة والسلام، كما أنّ آخر آية نزلت هي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾(٥٤)، على رأي كثير من الصحابة والمفسّرين والفقهاء(٥٥)، هي آية إنجازية أيضا وردت بنفس الصيغة؛ أسلوب الأمر (اتّقوا) المقرون بالخبر (يوما ترجعون فيه إلى الله).

وما بين هذه الآيات والمواضع المذكورة كثير من المتواليات الإنجازية التي تتفاعل وتتواشج فيما بينها لتشكّل فعلا كلاميّا شموليّا وكليّا يهدف الخطاب القرآني إلى إنجازه وهو (هداية البشر) ودعوتهم إلى التوحيد واعتناق الإسلام، وهو ما يؤكّده القرآن نفسه في مواضع عديدة منه يصف فيها الله عزّ وجلّ كتابه وكلامه بأنّه كتاب هداية وتذكير.

يمكن إدراج هذا الفعل، في نظري الخاصّ، ضمن فئة (التوجيهات) الكبرى من أفعال الكلام رغبةً في أن يستجيب المخاطَبُ للكلام المُوجَّه إليه، وما بقية الأفعال الكلامية سوى أفعال جزئية خادمة لهذا الفعل الكلّي ومساهمة في إنتاج دلالته.

هوامش البحث ومصادره

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

(١) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، د.ت، م٥، ج٣٨، ص٣٤٣٨. مادة (فعل).

(٢) الشريف الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٧٥.

(٣) عمرو بن عثمان سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م، ج١، ص ١٢.

(٤) عزت قرني، الذات ونظرية الفعل، القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، ص ١٦٢.

(٥)فرانسوازأرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، بيروت، د.ت، ص ٩.

(٦)جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع - الفلسفة في العالم الواقعي -، ترجمة صلاح إسماعيل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد ١٨١٢، ط١، ٢٠١١م، ص ١٧١.

(٧)ينظر: دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتين، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨م،ص ٧.

(٨)ينظر: جون لاينز، اللّغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط ١، ١٩٨٧م، ص١٨٩.

(٩) جون سيرل، الأعمال اللغوية - بحث في فلسفة اللغة -، ترجمة أميرة غنيم، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط ١، ٢٠١٥م، ص ٤٠-٤١.

(١٠) دومينيك مانغونو، المرجع السابق، ص ٧.

(١١)مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب - دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللّساني العربي -، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٤٠.

(١٢)ينظر: عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة - مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي -، منشورات الاختلاف، الجزائر، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م، ص ٦٨.

(١٣) فرانسوا أرمينكو، المرجع السابق، ص ٦٠.

(١٤) المرجع نفسه، ج ١، ص٨٧-٨٨.

(١٥) ينظر: أبي حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، تحقيق حمزة بن زهير حافظ، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، د.ت، ج٢، ص ١٦٢ وما بعدها.

(١٦) ينظر: محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، ص ٤٧.

(١٧) ينظر:عبد الفتاح فيود، علم المعاني -دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني-، مؤسسة المختار للنشر، القاهرة، ط ٤، ٢٠١٥، ص ٤٥-٤٦.

(١٨) ينظر: نعمان بوقرّة، نحو نظريّة لسانية عربية للأفعال الكلامية – قراءة استكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية–، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد ١٧، جانفي ٢٠٠٦، ص ٢٥٩.

(١٩) ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٢٠) ينظر: مسعود صحراوي: المرجع السابق، ص ٩٥.

(٢١) ينظر: المرجع نفسه، ص ٩٧.

(٢٢) ينظر: عبد الفتاح فيود، المرجع السابق، ص ٥١ وما بعدها.

(٢٣)ينظر: مسعود صحراوي، المرجع السابق، ص ٧١.

(٢٤)ينظر: السكاكي، المرجع السابق، ص ٢٥٤.

(٢٥)ينظر: أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إربد، ط ١، ٢٠١٥م، ص ٣٨.

(٢٦)سورة القصص، الآية: ١٦.

(٢٧)سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٢٨) سورة الأنبياء، الآية: ٨٨.

(٢٩)سورة مريم، الآية: ٢٨.

(٣٠)سورة مريم، الآية: ٢٩.

(٣١)سورة الرحمن، الآية: ٢٦، ٢٧.

(٣٢)ينظر: الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م، ج ٢٧، ص ٢٥٢.

(٣٣)سورة النساء، الآية: ٧٧.

(٣٤) ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م، ج ٨، ص ١٩١.

(٣٥)ينظر: المرجع نفسه، ج ٨، ص ١٩١.

(٣٦)سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٣٧)ينظر: الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ج ٢٥، ص ٣١٦.

(٣٨) سورة إبراهيم، الآية: ٠٢.

(٣٩)سورة مريم، الآية: ٣٧.

(٤٠)سورة المطفّفين، الآية: ٠١.

(٤١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٤٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٤٣)سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٤٤)سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

(٤٥)سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٤٦)الزمخشري، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٠.

(٤٧)سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

(٤٨)ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م، ج٣، ص٣٤٧.

(٤٩) سعد الدين التفتازاني، المطوّل -شرح تلخيص مفتاح العلوم-، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠١٣م، ص٤٣٣.

(٥٠) سورة آل عمران، الآية: ٣٦.

(٥١) ينظر: الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٣٤.

(٥٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٥٣)سورة العلق، الآية: ٠١.

(٥٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٥٥)ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، ج١، ص٧٢٠-٧٢١.